إخوتي وأخواتي،

الإنجيل الذي استمعنا إليه للتو، والذي اختاره البابا ليون من أجل يوم المرضى لهذا العام، هو من أجمل وأعبر الأمثال التي رواها يسوع. كلنا نعرف مثل السامري الصالح. نسمعه اليوم ونحن نتذكر ما يحدث هنا في مستشفى أوتيل ديو دو فرانس :مهمة المستشفى، وضع المرضى وأحيانًا المعانين، وعمل جميع القائمين على الرعاية، مهما كان وضعهم الوظيفي، وكذلك الموظفين الإداريين، الذين يخدمون هذه المهمة يوميًا.
ولكن، إلى ما وراء ما يحدث هنا في أوتيل ديو، فإن هذا الإنجيل يصل أيضًا إلى حياتنا الشخصية، حياة عائلاتنا، علاقاتنا، وبلدنا... نحن نعلم جيدًا أن جميعنا، بطريقة أو بأخرى سواء نحن أو من يعيش حولنا معنيون بهذه الحقائق من معاناة، تخلي، لا مبالاة، وبالتحدي المتمثل في الرحمة، والرعاية، والانتباه، والنظر الذي لا يترك أحدًا على قارعة الطريق.
يمكن القول إن هذا السرد الإنجيلي لا يزال يتحدانا اليوم؛ فهو يعيد طرح أسئلة على حياتنا، ويقلب راحة ضمائرنا أحيانًا النائمة أو المشتتة، ويحذرنا من خطر الإيمان المتساهل، المستقر في الالتزام الخارجي بالشريعة لكنه عاجز عن الشعور والعمل بنفس الرحمة الداخلية التي في قلب الله. الرحمة، بالفعل، هي جوهر المثل. وهذه الرحمة تبدأ أولاً بأبسط وسيلة: بالنظر. أمام هذا الرجل الجريح على قارعة الطريق بعد أن وقع بين لصوص، يقال عن الكاهن ثم اللاوي: «فرأه وتجاوز إلى الجانب الآخر» (32). أما السامري، كما يقول النص، «فنظر إليه فتملكه الشفقة".(33)
إخوتي وأخواتي، أعتقد أن هذا الإنجيل يدعونا إلى العناية بطريقة نظرنا. ماذا ننظر؟ من ننظر إليه؟ كيف ننظر؟ التعب، الإرهاق، الملل، والهموم، كلها قد تخفف من حدة نظرنا تجاه الآخرين. بعض الأشخاص قد يهربون أحيانًا من نظرنا؛ فلا نراهم بعد الآن، وبطريقة ما، يصبحون كأنهم غير موجودين. كذلك، نظرنا مشغول جدًا بشاشات هواتفنا لدرجة أننا نقضي وقتًا أطول ننجرف وراء صور غالبًا لا قيمة لها، وتبعدنا عن المكان الذي يجب أن نكون فيه: هنا والآن، حيث يجب أن نعتني، وننظر إلى من هو حاضر، ينتظر وجودنا، يأمل في نظرة تعيد له كرامته، وتظهر أنه جدير بالاهتمام.
في الواقع، النظر يحدث الفرق كله، لأنه يعبر عما في قلوبنا. هناك رؤية خارجية، مشتتة ومستعجلة، رؤية تتظاهر بعدم الرؤية، أي لا تسمح لأنفسنا أن نتأثر أو أن نتفاعل مع الموقف؛ وهناك رؤية القلب، بنظرة أعمق، مليئة بالتعاطف، تجعلنا ندخل في موقف الآخر، نشارك داخليًا، نلمس، نتأثر، ونتساءل عن حياتنا ومسؤوليتنا.
النظر الذي يتحدث عنه المثل هو نظر الله. إنه النظر الذي لا يبرحه الله عن كل واحد منا. التحدي، إخوتي وأخواتي، هو الدخول في طريقة الله، وفي النظر الذي يوجهه إلينا كما يوجهه إلى كل إنسان. لنا جميعًا نفس القيمة في نظر الله. السامري الصالح هو قبل كل شيء صورة يسوع، الابن الأبدي الذي أرسله الآب إلى التاريخ، لأنه نظر إلى البشرية دون أن يتجاهلها.
اليوم، الطريق النازل من القدس إلى أريحا، وهي مدينة تحت مستوى البحر، هو طريق كل من يغرق في الشر، والمعاناة، والفقر؛ هو طريق كثير من الأشخاص المثقلين بالصعوبات أو الجرحى بظروف الحياة؛ هو طريق كل من «ينحدرون إلى الأسفل» حتى يضيعوا ويصلوا إلى الحضيض؛ وهو أيضًا طريق شعوب كثيرة مجرّدة، مسلوبة، ونهبت، ضحايا أنظمة سياسية قمعية، واقتصاد يجبرهم على الفقر، وحروب تقتل أحلامهم وحياتهم. مثل هذا الرجل النازل من القدس إلى أريحا، تنحدر البشرية إلى هاوية الموت، واليوم أيضًا كما نعلم جيدًا يجب أن تواجه غالبًا ظلام الشر، والمعاناة، والفقر، وسخافة الموت.
لكن الله نظر إلينا برحمة، واختار أن يسلك طريقنا بنفسه، ونزل بيننا، وفي يسوع، السامري الصالح، جاء ليعتني بكل شخص.
الإنجيل الذي نسمعه اليوم يجدد دعوتنا من الله لنفعل كما فعل، لننظر إلى الآخر ومعاناته كما يفعل. بما أن المسيح هو تجلي الله الرحيم، فإن الإيمان به واتباعه كتلاميذه يعني السماح لأنفسنا بالتحول حتى نتمكن أيضًا من امتلاك نفس مشاعره: قلب متأثر، نظر يرى ولا يتجاهل، يداين تساعدان وتلطّفان الجراح، وأكتاف قوية تحمل عبء المحتاجين.
إخوتي وأخواتي، لنتذكر جميع المرات التي اعتنى فيها الرب بحياتنا، أو بطريقة أو بأخرى أعادنا إلى طريق الحياة. لقد اعتنى بنا في لحظات من حياتنا لم تكن بديهية، ولأسباب متعددة. لقد اعتنى بنا، واهتم بنا، ويريد أن نفعل الشيء نفسه، أن نعتني بالبشرية المعانة. أحيانًا نكتفي بأداء واجبنا، وهو بالفعل كثير، أو نعتبر قريبنا فقط من هو ضمن دائرتنا، مجتمعنا، من يفكر مثلنا، لكن يسوع يقلب المنظور من خلال تقديمه سامريًا، غريبًا، حتى هرطقة، يصبح قريبًا من هذا الرجل الجريح، ويطلب منا أن نفعل الشيء نفسه.
إخوتي وأخواتي، أن نرى وننظر إلى كل شخص، أن نوقف سباقاتنا المحمومة، ألا نترك شاشاتنا تسيطر على حياتنا، وألا نسمح للتقدم التقني الضروري أن ينسينا الإنسان، هذا ما يدعونا إليه الرب.
لتكن هذه الأمثال بوصلة لطريقة نظرنا، وتصرفنا، وفهمنا لمهمتنا هنا في أوتيل ديو دو فرانس، حتى يشعر كل شخص وبالأخص أولئك الذين يأتون للعلاج بالاعتراف به، والاحترام، والمحبة.

آمين!

الأب فرانسوا بوادك، اليسوعي